الاحتفاء بيوم اللغة الأم ويوم اللغة العربية

كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني(*)

أيها الحفل الكريم:

يسرّنا حضوركم استجابةً لدعوةِ مجمعنا، لتشاركوا في الاحتفال السنوي بمناسبتين هامتين أحببنا أن نجمعهما في يوم واحد: عيدُ العربية، بصفتها لغتَنا الأم الحاملة لتراثنا، والمهيكلة لمجتمعاتنا، والضامنة لفهمنا عناصرَ العالم الذي نعيش فيه، وهو عيدٌ نقيمه عادةً في الواحد والعشرين من شهر شباط،وقد أرفقناه بيوم اللغة العربية، وهو في الأول من آذار، بعد أن أصبحت العربيةُ اللغةَ السادسة بين اللغات العالمية التي يمكن اعتمادها في المجالات الدولية.

ومازال مجمعنا يثابر على الإخلاص لمنطلقه الأصلي، وهو دفع الأذى عن حياض اللغة العربية، وهي مُهمة تتركّز في مواجهة التيارات الحداثية التي تسعى لاستثمار تلكّؤ مجتمعاتنا في اقتناص الفرص للإفادة من السيل المعرفي الذي تطرحه الحركة العلمية العالمية، وهو يؤدي إلى إغراق اللغات الأخرى بسيل من المصطلحات تنتجها المراكز العلمية، مرافقةً لكشوفات علمية وطروحات فكرية قَلَبت نظرتنا إلى عالمنا.

وليست خدمة اللغة العربية محصورةً في دراسة أساليبها، أو تسهيل إعرابها،

(*) رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

أو التفاخرِ بإبراز تلك الثروة اللغوية التي ورثناها عمّن حملوا شعلة الحضارة العربية الإسلامية إلى أقاصي المسكونة، وقدّموا فيها منطلقات فكريةً استمرّ انتشارها حتى القرن العاشر الميلادي، وكانت أساساً راسخاً للحضارة الأوربية.

بل إن هدفنا الأسمى هو جعلُها قادرةً على السير مع تطوّر العلوم، في عالم قاربَ على جعل اللغة الإنكليزية المرجعيةَ الأولى، حين تَودّ المجتمعات الوصولَ إلى فهمٍ دقيق لنواظم الكون الذي نعيش فيه، وبخاصة حين تودّ النفوذَ إلى توضيح ما يحيط بها من تغيّرات ومؤثرات لعلها تستطيع درء أخطارها.

ونحن منذ دخولنا في الألفية الثالثة،وانطلاقِ أمواجِ ما يُسمّى ما بعد الحداثة، تلك الأمواج التي تَحمل الكثيرَ من التشكيك في حداثةٍ غربيةٍ فَرضتْ نفسها على عالمِنا، معتبرةً أن العالم الغربي وحدَه هو مركزُ العالم بأسرِه، مستندةً بذلك إلى إنجازاتها في عوالم التِقانة، مُزدريةً الثقافات التي لم تستطع مشاركَتها في مجالاتِ تدفّقِ السيلِ المعرفيّ المتسارع في عالمنا نرى أن إبرازَ موقعِ لغتنا في المسار الثقافي العالمي، عن طريق بيان حيويتها، وانفتاحِها على أرقى المجالات الفكرية الإنسانية، والتعمّقِ في دراسة تطورها التاريخي، بالإصرار على سبْر أغوارها وخَبْر بَواطنِها، تبقى هي المنطلقات التي تُعيد إلى لغتنا نَجاعَتها في مواجهة التحديات، وتُعيد إليها مكانتَها في وجدان أبنائها، على الرغم مما يتعرضون له من مُغرياتٍ تشدُّهم إلى تَغرُّبٍ طَوعي يُبعدهم عن انتمائهم الثقافي العريق.

أيها السيدات والسادة:

إن اللغاتِ البشرية ليست سوى منظوماتٍ تقوم بمعالجة المعلومات لتجعل منها المعرفة، وهي التي تستقرّ في الأدمغة رصيداً إنسانيًّا يُسمّى الثقافة. وهذا ما يجعل من اللغة تلك الأداةَ المتكاملة القادرة على تكوين أبنيةٍ رمزيّة ثقافية

عميقةِ الجذور، تنتهي إلى رواسبَ أعراقية مجتمعية راسخة، تُتيح للناطق بها فرصةَ التعبير عن فكرِه ومكنونه، بما يعطي له طابعاً يميّزه من غيره ويرسم مُهيكلات شخصيته.

وأما مايَخُصّ دعاةَ التغريب، الذين نراهم يزوّقون خطابَهم بألفاظٍ أجنبية مُدّعين بذلك انفتاحَهم على ثقافاتٍ أوسعَ من ثقافتهم، فقد أثبت الكثيرُ منهم عدمَ وجود فهمٍ دقيق لهذه الألفاظ لديهم،وهذا ما يجعلُها ناشزةً في خطابهم.

إنه مَسلَك يُبعد العربيَّ عن التفكير عربيًّا، دون أن يُدخلَه إلى الفكر الأجنبي، وهو تصرّفٌ قد لا يكون إراديًّا، بل هو نتيجةٌ واضحة لما نشهدُه من اختراقٍ ثقافي حضاري تمارسه الحداثة المُعَولَمة الغازية، التي لم نأخذ منها سوى قشورِها، إذ إننا لم نستفِد من هذا الاختراق لِنَنْفُذَ إلى لبِّ الثقافة الغربية، نأخذ منه الأسسَ التي نبني عليها تطوّر مجتمعاتنا. ولا شكّ بأن مفهومَ مابعد الحداثة هو تأكيدٌ لإخفاق الحداثة الغربية في هدفِها الإنساني الأصلي، إذ إنها أخلفت هيمنةً ظالمة، واعتمدت الاستعمارَ للسيطرة على الشعوب، واتّخذت الحروب وسائلَ لتحقيق مصالحها، بعد أن أنتجتِ الفاشيّةَ التي انتهت بالخراب والدمار. ولذا فإن مابعد الحداثة هو عصرُ التنوّع والاختلاف، بل هو عصرُ التشظّي.

ولا شك بأن استعمال الألفاظ الأجنبية في خطاب شبابنا لا يمكن أن يُعتبر تعريباً كما يدّعي بعض المتفذلكين،مُستندين إلى عمل التراجمة الأُوَل حين أدخلوا علوم الإغريق إلى اللغة العربية في العهد الأموي، وقبلوا دخولَ ألفاظٍ كالفلسفة والدينار والسَفْسَطة والأرتمتيقا وغيرِها، ويصف الجاحظ ذلك قائلاً «في البيان والتبيين»: «جازت هذه الألفاظ في صناعة

الكلام حين عجزت الأسماء الوضعية عن اتساع المعاني». أو كما يقول الجوهري في «الصحاح»: تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوّه به العرب على منهاجها: نقول عرّبَته وأعْرَبَته. وهو يُبرز بذلك المحافظة على هيكلية الألفاظ حين تعريبها. وحقيقة الأمر أن لغتَنا لا تحتاج إلى التمسُّك بإبقاء اللفظة الأجنبية على أصوات أحرفها الأصلية، في حين أنها قادرةٌ على الوصولِ إلى استنباط المقابلات الحضارية المطلوبة، بالاعتماد على ثروتها اللفظية في مجالات الوضع والاشتقاق، والقياس والمجاز والتوليد،بما يؤكد مقدرتَها على إنشاء مصطلحاتٍ حداثية، ويثبت جدارتَها لاستعمالها دون التفريط في خصوصياتها.

إن مسارَ مجمعنا في توطين العلوم، عن طريق صناعةِ المعجمات العلمية اللازمة للعلوم الحديثة التي تُدرَّس في جامعاتنا، هو خطوةٌ أساسية في تطوير لغتنا لإخراجها من حَوزةِ عولمةٍ مُجحِفة تعمل على تجريدها من مُميزاتها. وأهم ما نريد الوصولَ إليه هو أن تكون الألفاظُ بحجم دلالاتها، حاملةً للإشعاع الحضاري المناسب، وهو الذي يربطها بإمكانات العطاء الإبداعي، بما يرتقي بلغتنا إلى مستوى إنجازات الآخرين.

وإننا بذلك نحافظ على مخزونها التاريخي والفكري، خصوصاً على بُعدها الإنساني، لأنه أساسٌ لوحدة الناطقين بها، إذ إن الحفاظ على اللغة هو الحفاظ على الوجود حضوراً ومصيراً.

ولا شك أن توثيقَ العلاقة الحياتية بين لغتنا وبين مقوّمات مجتمعنا، في مواجهة ما يطرأ على عالمنا من تغيّرات متسارعة، هو مُهمّة غَرَضُها أن يحُول دون ظهور أجيالٍ لا انتماءَ لها ولا هُوِيّة، بعد أن يُسيطرَ التغريبُ على مناهج التفكير وقواعدِ التعبير عنه.

وأما التزامُنا بوجوب تطويرها فهو يقف في وجه من يريدون الحدَّ من قدراتها على ربط الناطقين بها بالبناء الاجتماعي الثقافي والفني المُتجدّد، ولذا لن نقبل بالمواقف التي تؤدي إلى تحنيطها بتجميد منطلقاتها الأصلية، بما ينتهي إلى تقييد تطابقها مع الروافد المعرفية المتتالية، ويجعلها تدخُل في عداد اللغات المُصَبّرة في مخازنها، بعدَ استعمال المعاول الفعّالة لاستئصالها.

إنها مؤثرات يحملها ما نراهُ من تلوّثٍ لغوي في المجتمعاتِ وفي وسائلِ الإعلام، ووسائل الاتصال الحديثة، فهي تدّعي لنفسها حرّيّةً لا تَملكها، تُسخّرها للتعبير عن خصائصَ جماعيّةٍ مزعومة، يمكن اختزالُها بالقول: إنها هُويّاتٌ حداثية جديدةٌ مُصطنعة.

وحقيقة الأمر أن جميعَ ما يطرأ على الأفراد من تحوّلات وتجارب لا قدرةَ لها على تبديل شعورِهم بحقيقة هويتهم، التي تبقى إحساساً داخليًّا، يُطَمئِنُ الإنسانَ على أنه هو نفسُه في الزمان والمكان، محتفظاً بانسجامه مع ذاته، وذلك لأن الهوية لها وجهان كما يقول (آلان تورين) Alain Touraine في كتابه «نقد الحداثة»: فهي من جهةٍ ذاتُ بُعدٍ فرديّ، ومن جهةٍ أخرى هي تعبيرٌ عن الانتماءِ إلى خصائصَ جماعيةٍ.

أيها السيدات والسادة:

لا بد من التساؤل عما يمكن أن نُخطِّط له للحؤول دون خضوع لغتنا لعزلةٍ مفروضةٍ تدريجيةٍ ينتهي إليها أبناؤها في مثل تلك المسارات، بعد أن تعرَّضوا لتلك المؤثرات، فهل نقبل الوقوفَ عند حدود حِماها المُحاصَر بكل أسلحةِ التكنولوجيا الدائمة التجدّد؟

وهل يكفي ما نقوم به من تسهيلٍ لتوطين العلوم فيها، عن طريق سباقٍ دائمٍ مع مراكز البحوث العالمية،في مسعانا لوضع المقابلات العربية

لمصطلحاتهم،ونبقى مستسلمين لواقعٍ يُبرز تأخراً دائماً في محاولاتنا لاقتفاء التسارع العلمي؟

لا شك بأن مجتمعاتنا تعيش استلاباً فكريًّا يتجاوز السيطرةَ على مقدّراتها، محمولاً على تصرّف فئاتٍ حداثيةِ المسالك، قد بَهرتْها بعض ظواهر التفرّد الحداثي بما جعلها فاقدةً للكثير من النواظم المجتمعية.

إنه استلاب يتجلّى في المظاهر السلوكية، إلا أنه سائرٌ بتدَرّج متسارعٍ نحو السيطرةِ على الفكر والهوية، وصولاً إلى مناهجِ الفكر وقواعدِ التعبير عنه.

وإن هذا الاستلابَ الظاهري يرافقه اقتراضٌ لغوي في الحياة اليومية يتجاوز حدود الضرورات ليجعل من لغة التعامل اليومي خليطاً ممجوجاً يغلب عليه التفاخُر بالعجمة.

كيف لا نستنكر تلك الظواهر، المُخلّةَ بصفاء انتمائنا إلى لغةٍ تنامى فيها الفكر ليصل إلى أعلى مراتب الفلسفة والعلوم، وحلّق فيها الخيال، كما حملتْ أحلامَ الأجيال، حتى وصلت إلى عالميةٍ طويلةِ الأمد في عدد كبير من العلوم؟!

إنه استلاب يجعل السائرين في منطلقاته يرتمون في أحضان لغة لا يعرفون من موازينها إلا القليل، ويبقَون واقفين على أعتابها مُغترّين ببريقٍ علمي هو نتاجُ الفكر الإنساني وليس نتاجَ اللغة الأجنبية، وهذا ما نلاحظه بوجهٍ خاص حين التطرّق إلى الموضوعات المرتبطةِ باستعمال التقانات الحديثة التي استقرت في لب حياة مجتمعنا.

لذا نحن نرى أنه مادمنا نعيش اللغةَ العربية، ونفخرُ بالانتماء بواسطتها إلى حضارةٍ تجاوبت مع مختلف متطلبات العقل البشري، باعتمادها لغةً متكاملةً يحترم نحوُها نواظمَ الفكر الإنساني وضوابطَها العقلية، لا بدّ لنا من خُطَّةٍ توصلنا إلى لغةٍ كاملة العلاقة بمقوّمات الحضارة الحديثة.

فقد أضافت المسارات العلمية الحداثية مجالاتٍ تقنيةً واسعة جعلت منها مستنداً لتسريع التقدم العلمي، ولإغناء حياة المجتمعات بتسهيل التواصل والاتصال، حتى جعلت المجموعات البشرية المختلفة تشعر أن عالمَها أصبح قريةً صغيرة مفتوحة على كل ما يجري في أركانها. ولا شك بأن مجالاتِ التقانة السريعةِ التوسّعِ قد نقلتنا من عجائب الكَهرباء إلى عجائب المواصلات، والآليات والطيران في الأفلاك وعلى رأسها منطلقات الذكاء الاصطناعي.

إن لغتنا لن يُعجزَها متابعةُ مسارِ تلك التقانات، فهي قادرةٌ على استيعاب مصطلحاتها مهما يكن سيرُها سريعاً، حتى تبقى مصطلحاتُها جاهزةً ومألوفةً من قبل العاملين في هذا المجال، تُمكّنهم من متابعة مجريات الإبداع في عالم التقانة.

ولايظنَّنَّ أحدٌ أن مثلَ هذا المسلك يُخرج العربيةَ من فَلَكها الواسع الذي مازال يجول فيه العقل والفكر والخيال، بل إن تطوّر العلوم الأساسية، في سعيها الهادف إلى كشف الدقائقِ المرتبطة بطاقاتها البحثية، قد جعلها تعتمد وسائلَ تنفيذيةً تُسهّل الوصولَ إلى تطبيقاتها، بعد النفوذ إلى مساراتِ الفكر الرياضي لتفهُّم تفاعلاتٍ وعلاقات لا قدرة للبَصَر على النفاذ إليها. وهذا مايدعونا إلى إدخال أساسيّات التقانة وأدقّ تفاصيلها إلى لغتنا، لإخراجها من غُربتها في مسار طويل سلكناه في وضع المصطلحات الخاصة بالعلوم الدقيقة.

وبذلك نتدارك أيَّ قطيعةٍ معرفية بين حاضرِ مجتمعاتنا في مسارها نحو مستقبل مشرق، وبين ماضيها العريقِ المتميز بمساهماته في بناء العلوم الحديثة، ونقدّم للأجيال الناشئة ما يستطيعون ضمَّه إلى مخزونهم الثقافي، فلا يبقى مايُلزمهم إلى اقتراضٍ مشوِّه للغتهم.

والسلام عليكم